الفصل السادس

الانتقال إلى السعودية

عام ١٩٩٤م بدأ يوسف دراسته في الصف الأول الابتدائي. بدأت أشعر بالقلق لأن أطفالي يترعرون بعيدًا عن ثقافة آبائهم، فمن المحتمل ألا يفهموا تلك الثقافة أبدًا، عندما يكبرون. وقد كنت أرى الشيء نفسه في زوجي حمزة الذي غادر فلسطين، عندما كان طفلًا صغيرًا، وعندما بلغ سن الرشد لم يفهم شيئًا عن ثقافة الشرق الأوسط أو الثقافة الأمريكية التي يحاول الآن أن يستوعبها. لقد أراد أن يعيش كلتا الثقافتين، لكنه لم يحظَ بأيٍّ منهما. لذلك أخبرته بأنني أرغب في العودة إلى الأردن لتربية أطفالنا، وقد دهشت عندما لم يجادلني في الأمر أبدًا، بل بدأ بالبحث عن وظائف حتى إنه طلب مني أن أساعده على ترجمة سيرته الذاتية إلى اللغة العربية. وهكذا انتهى به المطاف بالحصول على عرض عمل في الرياض في السعودية. لم تكن تلك المدينة وطني، لكن على الأقل كانت تقع في الشرق الأوسط.

بعنا منزلنا، ووزعنا كل شيء لم نرد شحنه إلى الرياض. أعطيت جيراننا الكثير من السجاد يدوي الصنع والمغطى بنسيج ذي ألوان باهية. بعد ذلك سافرنا للخارج، واستقررنا في الرياض، حيث سيعمل حمزة في مستشفى الملك عبدالعزيز.

التقانا أحد الأشخاص في المطار، وأخذنا إلى شقتنا الجديدة التي دفع المستشفى تكاليفها. كان أثاث تلك الشقة رخيصًا، لدرجة أنه كان يتفكك إذا دفعه أحد قليلًا، وكان السجاد متسخًا ولم تتوافر حافلة لتنقل أبنائي إلى المدرسة. لذلك قدم حمزة شكوى لمدير المستشفى، وخلال أسبوع انتقلنا إلى شقة جديدة.

كان حمزة في الصباح يأخذ يوسف إلى مدرسة حكومية، وكنت آخذ أنس مشيًا إلى روضة أطفال خاصة سجلناه فيها. وفي المساء كنت أمشي لأحضرهما قبل أن يرجع حمزة للمنزل من عمله. كانت حرارة الجو لا تطاق في أثناء الصيف في الرياض؛ لذلك كان معظم الناس يبقون في الداخل؛ ليتجنبوا الحرارة حتى تغيب الشمس، وتبرد الأرض قليلًا. وكان الأطفال يخرجون ليلعبوا، ويضحكوا، ويركبوا الدراجات الهوائية.

بلغ يوسف وأنس عمرًا أصبحا فيه يشعران بثقل تشدد أبيهما عليهما، فقد كانا يمضيان معظم الأيام يتذمران لي؛ لأنهما يريدان الخروج للعب مع الأولاد الآخرين، لكن حمزة كان يمنعهما من ذلك، وكنت أعرف أنني إذا سمحت لهما بالخروج في غياب حمزة فسوف ينفجر غضبًا عليّ لاحقًا؛ لذلك كان عليهما أن يبقيا في المنزل بعد رجوعهما من المدرسة. ولم يكن لديهما تلفاز أو جهاز فيديو، بل القليل من الألعاب البسيطة التي لا تكفي لتسليتهما. كانت سارة لا تزال طفلة صغيرة، ولم تهتم بالأمر. أخبر رجل متدين حمزة بأن التلفاز حرام في الإسلام، لكني لا أعرف من أين تعلم هذا التفسير بالذات، فلا توجد آية في القرآن تمنع الناس من الاستمتاع بوقتهم، لكن على الرغم من ذلك قرر حمزة أن كل شيء مسلٍّ يقع في خانة الحرام، وسوف يفسد أولاده.

في أحد الأيام، وبينما كنا جالسين في غرفة العائلة أخبرني أنس بأنه ذاهب ليستعمل الحمام. وبعد دقائق عدة سمعت امرأة من الخارج تصرخ، قائلة:

«لا تفعل ذلك يا ولد!».

ركضت نحو الحمام، ووجدت أنس مخرجًا نصف جسده خارج النافذة يحاول أن يهرب من الشقة؛ ليلعب مع الأولاد، وفي أسفل عتبة تلك النافذة كان هناك رجال يصلحون أنبوب مياه مكسورًا وغير مغطى. وكانت المنطقة المحيطة منطقة خرسانية، كنا في الطابق الأول، لكن النافذة كانت عالية إلى حد ما. فهرعت نحو النافذة، حيث كان أنس متجمدًا في مكانه. رفعت نفسي بسرعة على الغسالة، وسحبته للداخل.

«ماما، أريد أن أخرج، وألعب مع الأولاد».

تنهدت، وأخبرته بأن ينتظر، ويطلب الإذن من أبيه، لكنه بالطبع لم يفعل ذلك.

ذهب حمزة في الجمعة المقبلة إلى المسجد كالمعتاد، وتركني في المنزل مع الأطفال، وبعد أن ينهي الصلاة كان يذهب ليزور أخته حنان، ويبقى في منزلها بضع ساعات، وكانت حنان تلح عليه دائمًا بأن يحضرني أنا والأطفال، لكنه نادرًا ما وافق. فقد كنت محظوظة إن رأيتها مرة في الشهر. وكنت عندما أرى حنان وزوجها أتذكر سعادة الزواج التي لم أحظَ بها مع حمزة. فقد كان زوجها شخصًا منفتح العقل، ويسمح لحنان بالذهاب إلى مركز التسوق

وزيارة صديقاتها. وكانا كل عام يزوران عائلتها في الأردن، ويأخذان الكثير من الهدايا لهم، لم يرغب حمزة في أن أراهما كثيرًا؛ حتى لا أعرف ما واجباته نحوي.

وبينما كان حمزة في المسجد كنت أصلي في المنزل، وفجأة سمعت ضجيجًا عاليًا في المطبخ. سحب أنس سكينين كبيرين من الدرج، وكان هو ويوسف يلعبان لعبة المبارزة بهما، أمرتهما بأن يعطياني السكينين، فأطاعني يوسف سكينه فورًا، لكن أنس أمسك السكين بإحكام، وبدأ يركض في المنزل، حاولت أن أغريه بقطعة حلوى، لكنه ضحك، وقال: إنه لن يعطيني السكين إلا إذا أخذته للخارج ليركب الدراجة الهوائية، ثم بدأ يركض أسرع وأسرع، حتى ارتطم رأسه بالحائط.

أخذت السكين من يده بصعوبة، لكنه كان ينزف، ويحتاج إلى إسعاف جرحه؛ لذلك ناديت على جارتي السعودية (أم أسامة) في الطابق الأعلى لتساعدني، فأتت وعرضت علي أن ترافقني أنا وأنس إلى المستشفى، فأخبرتها بأني لا أستطيع الذهاب؛ لأن ذلك سيغضب حمزة.

«ماذا؟ أنت مجنونة. إنه طبيب، وسيرغب دون شك في أن يذهب ابنه إلى المستشفى!».

كنت أعرف أن حمزة قد أنهى صلاة الجمعة، ومن المؤكد أنه في بيت حنان الآن. لذلك اتصلت بمنزلها، لكن كان الخط مشغولًا. لم يكن لدى حمزة هاتف خلوي في ذلك الوقت؛ لذلك اتصلت به على جهاز الإخطار (البيجر). وبعد ثلاث دقائق اتصل بي أخيرًا على هاتف المنزل، وأخبرته بما حدث.

«لا تأخذيه إلى المستشفى. أنا قادم للمنزل».

أسرع حمزة للمنزل، وحمل أنس على ذراعيه، وأخذه للمستشفى، حيث خاطوا له أربع خرز في جبينه، وعندما عادا خاطبني حمزة بغضب، قائلًا:

«لو كنت أمًّا صالحة لما حدث ذلك».

كنت أغلي من الداخل، لكني لم أدع حمزة يرى ذلك في ملامحي، وقررت أن أعلمه درسًا. فعندما غادر لعمله يوم السبت أقفلت الباب الأمامي، ووضعت الأغلال عليه. عاد حمزة عند الساعة ٥:٠٠ مساءً، لكني رفضت أن أدخله المنزل. ثم أخبرته من وراء الباب بأنني أريد أن أربي أولادي على طريقتي الخاصة؛ لأبرهن أنني أم صالحة».

صاح، قائلًا: «افتحي الباب!».

أمسك حمزة الباب، وهزّه بكل قوته، حتى انخلع من مفاصله. سحبت الولدين بعيدًا عن الباب، وتشبّثا بساقيّ. ثم أغرى حمزة الولدين ليبتعدا عني، واعدًا بأن يسمح لهما بركوب الدراجات الهوائية معه. لكن قبل ذلك أرجع الباب إلى مكانه بالمطرقة.

في اليوم المقبل أعددت طعام العشاء للعائلة، فتناول حمزة الطعام بصمت رافضًا أن يتحدث معي، عندئذ قررت أن أتركه مع أني لم أكن متأكدة ماذا سأفعل لأحتفظ بأولادي، وتركت التفكير في ذلك للمستقبل. فكل ما رغبت فيه الآن هو أن أترك حمزة؛ لذلك حزمت حقيبة صغيرة سرًّا، فلم يكن معي إلا مئة ريال وثلاث قلادات ذهبية، لم أخبر حمزة عنها أبدًا. وعندما عاد للمنزل من العمل أخبرته بأن يربي الأولاد وحده؛ لأنه أفضل مني في ذلك، ثم رحلت. لم يكن لدي هاتف، ولم أعرف المكان الذي سأذهب إليه، لكني حاولت أن أبدو واثقة من نفسي؛ حتى لا أجذب الانتباه.

بعد أن مشيت صفين من البيوت أدركت أني قد نسيت جوازي سفري (الأمريكي والأردني) في المنزل، كان علي أن أحضرهما. لكن عندما رجعت للشقة رفض حمزة أن يدخلني. لذلك ذهبت خلف العمارة، وتسلقت إلى الشرفة، حيث كانت ملابسنا النظيفة معلقة على حبل الغسيل. كان الباب مفتوحًا، فدخلت، وأخذت جوازي سفري.

في هذه المرة أوقفت سيارة أجرة، لكني لم أكن متأكدة إلى أين أخبر السائق أن يتوجه، لذلك طلبت منه أن يأخذني إلى (السيفوي). وعندما وصلت إلى هناك اتصلت بحنان، فهي الوحيدة التي كنت أتذكر رقم هاتفها، وأعلم أنها وزوجها طالما ساندني ضد حمزة، فقد كانا مدركين معاملته السيئة لي، فطلبت من حنان أن تأخذني إلى المطار؛ لأنني لا أملك المال الكافي لأدفع مرة أخرى أجرة السيارة إلى هناك. وصلت حنان وزوجها صالح بعد برهة.

«لا تفعلي ذلك يا فدوى، فكّري في أولادك».

أخذاني إلى المنزل، وأخذا طعام العشاء معهما ليهدّئا الأمور. أقنع صالح حمزة بأن يعيدني إلى الشقة، ثم ركض جميع الأولاد نحوي.

«ماما! ماما!».

عانقتهم بشدة، وكنت حزينة جدًّا؛ لأني لم أستطع تربيتهم على طريقتي. سمح لي حمزة بالبقاء في الشقة، لكنه رفض النوم معي على السرير نفسه. لم أهتم بذلك، فتجاهلته، وركزت على تربية أولادي ومساعدتهم على واجباتهم المدرسية ومحاولة منحهم بعض التسلية؛ حتى أربطهم بذكريات طفولة يحبون أن يتذكروها عندما يكبرون. بقي حمزة في غرفة المعيشة، وتجنب كليًّا الحديث معي. وفي اليوم المقبل اتصلت أخته بي لترى إن كان قد اعتذر. ثم أتت هي وزوجها في عطلة نهاية الأسبوع ليحاولا مساعدتي، لكن دون جدوى. فلم يتحدث حمزة معي مدة ثلاثة أشهر تقريبًا.

وفي النهاية اتصل بأخي بهجت، الذي كان في ذلك الوقت يعيش في مدينة أخرى في السعودية، وشكا إليه بأنني لا أعتني به. لم يكن بهجت متأكدًا ماذا سيفعل، لكنه دعانا لزيارته لنغير الجو الذي كنا نعيش فيه. وهكذا قاد حمزة بنا السيارة من الرياض إلى منزل بهجت في الدمام، وهي مدينة ساحلية كبيرة تقع على الساحل الشرقي. أخذنا الأولاد معنا، لذلك طالت الرحلة؛ لأننا كنا نتوقف مرات كثيرة لاستخدام المرحاض في محطات الوقود، أو لنأكل. وبعد أن وصلنا بقينا عند بهجت ثلاثة أيام، أحصى خلالها حمزة مساوئي الكثيرة.

«أترى هذا؟» سأل مشيرًا إلى تجعيدتين على قميصه. «إنها لا تستطيع الكيّ».

عرض أخي على حمزة أن يكوي قميصه، بعد ذلك تحدث إلي على انفراد، قائلًا:

«أليس زوجك شخصًا متعلمًا؟ إذن ما خطبه؟».

جاء أيضًا بعض أولاد عمي الذين لم ألتقِهم من قبل؛ ليزورونا، كنت متحمسة للقائهم، لكن لم يسمح لي حمزة بالتحدث إليهم في غرفة المعيشة، ولم أستطع رؤيتهم إلا من خلال النافذة. كان حمزة يحب أن يهينني أمام عائلتي، وكان يريد أن يثبت لكل أقاربي أنه هو صاحب الكلمة الأخيرة في علاقتنا. لذلك شعرت بالراحة عندما غادرنا منزل أخي، ورجعنا إلى منزلنا.

وفي ذلك العام نفسه أتيحت لي أخيرًا فرصة الذهاب إلى مكة المكرمة لتأدية مناسك الحج، فقد كان مفروضًا علي بوصفي مسلمة أن أحج مرة واحدة على الأقل خلال حياتي، ولأني كنت سليمة البنية وقريبة جدًّا من مكة المكرمة، وأملك المال الكافي، فقد كان علي أن أذهب إلى تلك الرحلة. عرضت علي حنان أن تعتني بأولادي. وهكذا ذهبت أنا وحمزة بالسيارة، وأمضينا اثني عشر يومًا في مكة المكرمة خلال شهر ذي الحجة، آخر شهور السنة الهجرية.

عندما عدنا إلى الرياض قرر حمزة مرة أخرى أن يغير عمله؛ لأنه غير سعيد في عمله الحالي، وبدأ يبحث عن عمل آخر. وجد عملًا في شركة تدعى (أرامكو السعودية) وهي شركة سعودية وطنية تعمل في مجالات النفط والغاز الطبيعي والبتروكيماويات. لكن كان علينا الرجوع إلى المنطقة الشمالية لولاية نيويورك بعض الوقت، ثم نسافر إلى هيوستن للتدريب قبل أن نرجع إلى السعودية.

عندما رجعنا إلى نيويورك في شهر نيسان ١٩٩٥م أقمنا في مجمع سكني يدعى (نوبهول). فقد استأجرنا شقة من رجل سعودي عاد إلى وطنه ليمضي عامًا هناك، وكان كثير من جيراننا من دول الشرق الأوسط: السعودية، وفلسطين، والكويت.

في الشهر المقبل، وقبل عيد الأضحى بقليل جاء عندنا إخوة حمزة وصديق للعائلة من مقاطعة كوينز. ولأنه لم يتوافر مكان كافٍ في شقتنا لهم أقنعنا بعض جيراننا الأطباء الذين يعملون مع حمزة بأن يستقبلوهم بضعة أيام.

وقبل العيد بيوم ذهب حمزة وإخوته إلى المسجد ليصلوا، بينما أنا لم يسمح لي حمزة بالذهاب، كان الجميع هناك يتحدثون عن العيد، الذي فيه يلتقون عائلاتهم، ويقيمون حفل شواء كبيرًا احتفالًا بهذا اليوم، وبعد نقاش طويل وافق حمزة أخيرًا على أن أذهب. وهكذا أمضيت بقية اليوم أحضر السلطة، وأبهر اللحم لآخذه لحفل الشواء، فقد كنت سعيدة جدًّا؛ لأنني سأتمكن من الخروج ورؤية أناس كثيرين.

وفي اليوم المقبل عند نحو الساعة ١١:٠٠ صباحًا وضعت بحذر الطعام في حقيبتين كبيرتين، ووضعت سارة في عربة الأطفال.

«يوسف، أنس، تعالا لنذهب تحت العمارة لنلتقي أباكما».

أمسكت يد أنس، وحملت الطعام.

«يوسف، ادفع عربة أختك في الرواق».

أمسك يوسف مقبضي العربة، ودفع سارة بحذر على السجاد المخملي في الرواق (الممر). ولم نمشِ إلا بضع خطوات، عندما نظرت رفعت عينيّ، ورأيت حمزة يقف أمامي ووجهه محمر غضبًا.

«ما هذا يا فدوى؟».

«كنا سننزل مع الأسف للقائك يا حمزة. الطعام هنا معي والأطفال جاهزون». حاولت أن أبتسم له، لكن لم يستجب.

«لماذا يدفع الولد الصغير عربة سارة؟ أنت أمها، وعليك الاعتناء بابنتك بنفسك».

«لكني أحمل الطعام يا حمزة. إنها بخير، ويوسف حريص جدًّا».

انقبض فكه، وأخذ الحقائب من يدي.

«أنا لا أستطيع الوثوق بك لفعل أبسط الأشياء. يوسف، أنس، تعالا». هز رأسه مستاء حتى نهاية الرواق، واندفع الولدان وراءه.

«حمزة!».

«ابقي هنا في البيت، واعتني بابنتك».

رجعت إلى الشقة مع سارة، لكني لم أستسلم، وأخرجت دفتر الهاتف، وبحثت فيه عن أرقام صديقاتي اللواتي سيذهبن إلى حفل الشواء. لكن لم ترد أي منهن، فقد غادرن منازلهن. ذهبت، وجلست على الأرض في غرفة المعيشة، وأغلقت عينيّ، وصدري مقبوض من الإحباط.

بدأت سارة بالبكاء؛ لذلك مسحت دموعي وأنفي بكمّ قميصي، وأخذتها إلى متنزه قريب من العمارة. وشعرت لحظة بالأمل في أن أجد شخصًا لم يذهب للحفل، نظرت حولي، لكن لم أجد أحدًا.

وفجأة بدأت أصرخ.

«لماذا لا تفعل شيئًا يا إلهي؟».

جلست تحت شجرة أصرخ يخنقني هواء الصيف الثقيل. وكانت سارة جالسة في عربتها تنظر بفضول إلى أمها المستشيطة غضبًا.

ثم بدأت الأشجار بالاهتزاز، ومال غصن بقربي ثلاث مرات. هدأت من روعي، وجثمت على الأرض خوفًا من أن العقاب سيحلّ بي بسبب هيجاني، ثم استلقيت على العشب بسكون

وصـمت بضع لحظات، لكن لم يمسني شـيء، وفي تلك اللحظة شعرت بالسكينة، وتوقفت عن البكاء، ثم حملت سارة، وضممتها إلى صدري، وأنا أجرّ عربتها ورائي.

وعندما وصـلنا إلى المنزل اسـتغرقت سـارة في قيلولة، وأعددت بعض الحلوى للعائلة ليتناولوها لاحقًا. ثم عادوا من حفل الشواء بعد الساعة ٥:٠٠ مساء بقليل، ركض يوسف وأنس نحوي، وعانقا ساقيّ.

«ماما، كان الجميع في حفل الشواء يسألون عنك!».

ابتسمت قليلًا، وقلت: «حقًّا؟ ماذا قلتم لهم؟».

«قلنا لهم: إنك مريضة» ثم ألقى يوسف نظرة سريعة على والده، وهمس لي قائلًا: «هذا ما أخبرنا أبي بأن نقوله».

ابتسمت، وربتّ على رأسه.

«لقد أعددت بعض الحلوى يا حمزة، هل أجلب لك منها؟».

«لقد أكلنا في الحفل يا فدوى، ونحن متخمون الآن، اتركيه غدًا».

حتى بعد غيابي عن حفل الشواء لم يشعر حمزة بكل ما عانيت. ثم ذهب لينام في غرفة نوم الأطفال، وكان الأطفال ينامون معي على السـرير الكبير، حاولت أن أكبح غضـبي، لذلك كنت كل يوم عندما يعود حمزة من العمل أعد له العشـاء، وأحاول أن أسأله كيف أمضى يومه؟ لكنه كان يسلم علي بسرعة، ويتجاهلني بقية المساء.

أمضـينا أشـهرًا على هذه الحال. فقد كانت تلك طريقة حمزة في الانتقام مني، وكانت أيضًـا هي السبب الذي منعني من معرفته جيدًا، حتى بعد كل تلك السنوات التي عشناها معًا. وفي شـهر كانون الأول علم حمزة أن التدريب للعمل في شـركة أرامكو سيبدأ عما قريب، وكان يحتـاج إلى مشـاركتي؛ لأن العقد يلـزم أن تكون زوجتـه موافقة على الذهاب معـه؛ لذلك بدأ يتحدث معي ثانية.

وفي منتصـف شـهر كانون الثاني عام ١٩٩٦م سـافرنا مع الأولاد إلى (هيوستن)، حيث كان علينا حضـور ثمانية أيام من المحاضـرات عن الشـركة وعملها ونظامها في السـعودية. وقدمت الشـركة جليسـة لأطفالنا، لكن أنس وسـارة لـم يتوقفا عن الصـراخ، عندما اقتربت

منهمـا؛ لذلـك بقيت في الفندق في اليـوم الأول. وعندما اقترب النهار مـن نهايته أخذ رئيس شركة أرامكو حمزة جانبًا، وسأله: لماذا لم يحضرني؟

«إنها جزء من العقد أيضًـا يا دكتور حمدان، وعليها أن تحضـر المحاضـرات، وإلا فلن تتمكن من الذهاب معك».

وفي اليوم المقبل أخذت جليسـة الأطفال يوسـف وأنس إلى متحف هيوسـتن للقطارات ليلعبـا بالألعاب، ويركبا السـيارات الكهربائية، أما أنا فأخذت سـارة معـي. عُقد الاجتماع في قاعـة كبيـرة، لكن لم يحضـره أناس كثيرون، ثـم أخبرني حمزة بأن أجلس في الخلف؛ حتى لا تزعج سـارة أحدًا، وجلس هو على مسـافة صـفوف كثيرة فارغة أمامنا، حيث لم أتمكن من سماع أي من تفاصيل عقد عمله، ولا حتى على كم من المال سيحصل.

في اليوم الثالث وصـلت سـائقتنا لفندقنا لتأخذنا إلى المحاضـرة، لكن حمزة قرر أنه ليس من الضروري أن أذهب، وأخبرها بأنني مريضة.

بدت قلقة، وقالت له: ((هل أستدعي طبيبًا؟)).

«لا، لا. هذا ليس ضروريًّا، إنه ليس مرضًا بمعنى الكلمة. فدوى فقط....ممم. حسنًا، إن كان لا بد من أن تعرفي، إنها تمر (بفترة الحيض) لكن لا تسأليها عن ذلك لأنك ستحرجينها. قال ذلك، وهو يرشـدها إلى الرواق قبل أن تتسـنى لها الإجابة. وفي أثناء اللقاء الذي عقد في ذلك اليوم سأل الرئيس حمزة مرة أخرى: لماذا لم أحضر؟، فأخبره بأني مريضة.

وفي اليوم المقبل لفّ حمزة ضـمادة حول سـاقي بدءًا من أصـابع قدمـي وحتى ركبتي، وأخبر الجميع لاحقًا بأنني سـقطت من أعلى السـرير، ولويت كاحلي. وطمأن السـائقة بأنه لا حاجة بأن أذهب إلى المستشـفى؛ لأنه طبيب، وقام مسـبقًا بفحصـي بنفسـه، لكن في أثناء الاجتماع أخبر مدير الشـركة حمزة بأنه إن لم أحضـر المحاضـرات، فلن أتمكن من الانتقال معه إلى السعودية.

اتصـل حمزة بي ليعلمني أنه والسـائقة قادمان ليقلاني، وعندما وصلا ساعدني حمزة على الجلوس على كرسـي المقعدين، ووضع سـارة في حضني. لم تكن هناك أي حجة لتفسير شـفائي المفاجئ، لذلك اضـطررت إلى أن أبقى في كرسـي المقعدين بقية الرحلة. واسـتمر حمـزة علـى هذا المنوال خلال مدة التدريـب، محاولًا أن يمنعني من التعرف إلى الأشـخاص

الذين سيعمل معهم. وبعد أسبوع كامل من تحايل حمزة غادرت المجموعة أخيرًا الولايات المتحدة، متجهة إلى السعودية.

عشنا في مجمع شركة أرامكو السعودية في الظهران، وهي مدينة في شرق السعودية. وكنا قريبين من مدينة القطيف الساحلية وجنوبًا من راس تنورة، حيث كان لأرامكو السعودية مجمع آخر. بذلت الشركة جهدها لتجعل الجميع يشعرون بالراحة هناك، وكان مجمعنا في الظهران يشبه مدينة صغيرة تحتوي على الحافلات والمدارس والمتاجر والمنشآت الرياضية ومستشفى، وكان لدينا منزل كبير على الشارع تحيط به الأشجار؛ لذلك شعرت فورًا بأنني في بيتي.

بدأ حمزة يتعرف إلى الأطباء الآخرين في المستشفى، الذين كانوا من جنسيات فلسطينية وأردنية وسعودية ومصرية. وكانت زوجات بعض الرجال في المستشفى يلححن على أزواجهن ليعرّفوني إليهن، لم يرد حمزة أن يبدو غير اجتماعي؛ لذلك أعطاهم رقم هاتفي، ونبهني دون اكتراث بأن أتوقع مكالمات من غرباء. أتت جارتنا من البيت المجاور (وهي امرأة سعودية اسمها أم محمد) لترحب بي في الحي تحمل معها بسبوسة. ثم تحدثت مع بعض الزوجات الأخريات على الهاتف، وحضر بعضهن ليرحبن بي.

وبعد أسبوعين اتصلت بي امرأة فلسطينية، وتحدثنا قليلًا. سألتني إن كانت تعجبني الحياة هنا في الظهران؟، وماذا أفعل في النهار عندما يكون أطفالي في المدرسة؟، ثم أخبرتني عن حلقة دينية تشارك فيها كل أسبوع، كانت تلك الحلقة عبارة عن نساء يلتقين لقراءة القرآن والتناقش حول الإسلام، ثم دعتني تلك المرأة إلى أن أنضم إليهن، لكني أخبرتها بأن علي أن أسأل حمزة. فقد كان علي التخطيط بحذر إن كان هناك أمل بأن أغادر المنزل ساعة كل أسبوع، ولأن الحلقة كانت عبارة عن مجموعة دينية، فمن المحتمل أن يسمح لي حمزة بالذهاب، ومن ناحية أخرى كانت صديقتي الجديدة ستقلني بسيارتها، ومن يعرف إلى ماذا سيؤدي ذلك؟ فمن المحتمل أن نذهب يومًا لمنزل صديقة لقراءة القرآن، ويومًا آخر نلف الظهران بالسيارة نتسوق، وننفق الكثير من مال حمزة. (هذا ما كان يجول في تفكير حمزة).

دهشت عندما وافق حمزة على ذهابي لحضور الحلقة الدينية على الرغم من بعض التحفظات. وفي مساء ذلك اليوم اتصلت بي امرأة سعودية اسمها أم أحمد، وعرفتني بنفسها تحدثنا ساعة تقريبًا، ثم دعتني أم أحمد للمشاركة في حلقة أخرى. كانت تلك حلقة مختلفة

تتكون معظمها من نساء سعوديات، أما الحلقة الأخرى فتكونت معظمها من نساء فلسطينيات. وعرفت فيما بعد أن النساء يقسّمن أنفسهن بتلك الطريقة ليتجنبن الصدامات حول طرق تفسير القرآن التي تختلف باختلاف ثقافاتهن.

لم أرد أن تعتقد أي مجموعة أني اخترت المجموعة الأخرى تحيزًا، لكن كان من الصعب أن أقنع حمزة بالسماح لي بمغادرة المنزل مرتين في الأسبوع. وبالفعل، فقد هز رأسه رافضًا، وقال: إنه ليس من الضروري أن أشارك في المجموعتين، فواحدة تكفي. لكني تملقته، وطمأنته بأنني سأرجع للمنزل قبل رجوع أبنائنا من المدرسة بوقت طويل، وسيكون هناك وقت كافٍ للطبخ والتنظيف. وافق أخيرًا، وسمح لي بالذهاب إلى كلتا الحلقتين. وهكذا اتصلت بصديقتيّ الجديدتين لأزف إليهما الخبر السعيد. وذهلت صديقتي الفلسطينية، عندما علمت أنني لا أستطيع قيادة السيارة.

«لكنك عشت في الولايات المتحدة مدة طويلة! ألم تقودي السيارة هناك أبدًا؟».

لا يسمح للنساء بالقيادة في السعودية، لكن في **مجمع أرامكو كان يسمح لهن بذلك. عرضت علي صديقتي أن تقلني بسيارتها، وأن تعلمني القيادة، لكن رفضت بشدة**، فمجرد التفكير في ذلك سيفزع حمزة، لا، ففي الوقت الحاضر تكفيني حرية الخروج من المنزل مرتين في الأسبوع والتحدث بحرية مع صديقاتي.

كنا نحتسي القهوة، ونتناول الحلويات، عندما نلتقي في الحلقة، ثم نقرأ معًا آيات من القرآن، وكنا كل أسبوع نختار بالتناوب منزل واحدة منا لنلتقي فيه، كان يوسف وأنس يذهبان إلى المدرسة، لكن كانت سارة صغيرة جدًّا، لذلك كنت آخذها معي، أعجبت النساء في كلتا الحلقتين بصوتي عند قراءة القرآن، وعندما عرفن أنني كنت أعلم مجموعة في نيويورك طلبن مني تعليمهن المزيد عن الإسلام. في الحلقة الدينية السعودية كنا نحفظ الكثير من الآيات القرآنية، أما في الحلقة الفلسطينية فكنا نناقش الأحاديث النبوية.

وبعد أشهر قليلة سألتني أم أحمد إن كنت أرغب في الذهاب إلى مدرسة أسماء بنت أبي بكر؟، فهي مدرسة تعلم المزيد عن القرآن، وتمنحنا شهادات لتعليم الآخرين. كانت تلك المدرسة تقع خارج مجمع أرامكو، بل حتى خارج الظهران، كانت في الدمام. وكان علينا أن نجمع خمس عشرة امرأة للانضمام للمدرسة، حتى تجلب لنا شركة أرامكو حافلة تقلنا إلى هناك.

تم ترتيب كل شيء باستثناء شيء واحد مهم، وهو شيء كنت قلقة منه؛ لأنه من المحتمل أن يدمر خططي في لمحة بصر. فقد كان علي الحصول على إذن حمزة. وعندما طلبت إذنه تقوس فمه مثل كل مرة يكون فيها على وشك الرفض، لكن شيء ما جعله يتردد.

«لماذا تريدين الذهاب إلى تلك المدرسة؟ هل ستذهبين للتبضع في الدمام؟».

«لن أذهب للتبضع، بل أريد تعلم المزيد عن القرآن».

«سأفكر في الموضوع».

في اليوم المقبل كنت أحبس أنفاسي كلما رأيت حمزة في الغرفة؛ خوفًا من أن يرفض طلبي، وأبقى حبيسة المنزل مرة أخرى، بينما تذهب صديقاتي إلى المدرسة. لكن أخبرني بأنني أستطيع الذهاب على شرط أن أرجع للبيت قبل أن يغادر الولدان المدرسة عند الساعة ١٢:٣٠ مساءً. ابتهجت، وسجلت اسمي في المدرسة مع ست عشرة من النساء، وفي شهر أيلول بدأت الحافلة تقلّنا إلى الدمام كل صباح يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء. وكنت آخذ سارة معي، وأضعها في حضانة المدرسة. واستمتعت بوجودي في المدرسة. وهناك بدأت أتعلم ماذا يقول القرآن عن الزواج. فالقرآن يمنع الرجال من أن يطلبوا استرجاع أي جزء من مهر العروس، وأن عليهم الاعتناء بزوجاتهم والاهتمام براحتهن، فعلى الرغم من كل ادعاءات حمزة بأنه رجل متدين كنت متأكدة أنه لم يسمع بتلك الأمور قط.

وبحلول الصيف اكتشفت أنني حامل مرة أخرى، لكني استمررت في الذهاب إلى الحصص. كنت سعيدة لأني سأرزق بطفلي الرابع، لكن لم أرغب في أن أعلق في المنزل ثانية. وفي شهر كانون الثاني من عام ١٩٩٨م أنجبت طفلة أسميناها (روان). وبهذه المناسبة أعدت السيدات في الحلقات الدراسية طعامًا وافرًا لعائلتي، لدرجة أنني رجوتهن ألا يعدّوا المزيد حتى تنتهي عائلتي من الطعام الذي أعطيننا إياه. وبعد ثلاثة أسابيع أصبحت آخذ روان معي إلى المدرسة، وهناك أمضت روان أيامًا كثيرة تجلس في عربتها، حتى قالت المعلمة على سبيل المزاح: إنها ستعطيها شهادة أيضًا.

في شهر آذار أعلن حمزة أنه قرر الذهاب إلى الأردن مدة أسبوعين لم يكن من المعتاد أن يذهب بهذه السرعة بعد آخر زيارة له، لكنه صد أسئلتي، وقال لي: إنه ذاهب إلى مقابلة والديه، ثم السفر إلى فلسطين؛ ليتحقق من المنزل الذي بناه لوالديه.

وبعد أن عاد قال: إنه اشترى منزلًا في الأردن.

«اشتريت منزلًا يا حمزة؟».

أجاب بنعم ببساطة دون الخوض في التفاصيل، وكنت أعرف أنه سيغضب إن سألت عن السبب، لذلك لم أقل شيئًا.

وبعد أشهر قليلة في شهر آب قرر حمزة أن يأخذ العائلة إلى الأردن وفلسطين بمناسبة العطلة الصيفية للأطفال.

وهكذا حزمنا أمتعتنا، وانطلقنا في رحلة إلى الوطن مع أطفالنا الأربعة وفي اليوم نفسه رأيت بيتنا الجديد أول مرة. كان يقع في الحي القديم الذي يعيش فيه والدا حمزة، وكان الفناء الخلفي يواجه العمارة السكنية التي يعيش فيها حمزة الآن، وعندما انتقل والدا حمزة إلى فلسطين تركا كل أثاثهما القديم خلفهما، ولأن زوجة أخي حمزة لم ترد شيئًا من ذلك الأثاث أخذناه، ووضعناه في منزلنا الجديد.

شبك حمزة سلكًا في الخارج؛ حتى نتمكن من استخدام الهاتف في المنزل. وعندما اشتغل الهاتف اتصلت بوالدي لأعلمهما أننا عدنا للوطن.

وفي اليوم المقبل ذهبنا إلى منزل والدي لنزور عائلتي التي لم أَرَها منذ سنين. ثم تحدثنا، وضحكنا ساعتين.

اشترى حمزة هدايا لعائلته، لكنه لم يسمح لي بشراء أي شيء لعائلتي، جعلني ذلك أشعر بالإحراج عندما رحب بنا والداي عند الباب الأمامي، ونظرا بشغف إلى يدي الخاويتين. طأطأت رأسي، واعتذرت، قائلة: إننا خططنا للسفر سريعًا، ولم يتح لنا الوقت لشراء أي شيء لهم، إلا أن عائلتي أكدت لي أنهم لا يرغبون في شيء إلا رؤيتي أنا والأطفال، ومع ذلك كنت أشعر بالحرج.

قالت أختي: «فدوى، لماذا لا تبيتين أنت وعائلتك هنا الليلة؟ لقد قطعنا كل هذه المسافة لنراك وأنت تريدين المغادرة بسرعة!».

نظرت لحمزة على أمل أن يوافق، لكنه ابتلع لقمة كبيرة، وهزّ رأسه رافضًا.

«لا، أنا آسف، لا يمكننا البقاء. نحن ذاهبون إلى فلسطين في الصباح، وعلينا المغادرة باكرًا، فربما نأتي لتناول الغداء هنا عندما نعود».

قضـي الأمر. ابتسمت أختي قليلًا، وهي محبطة، وعضضت أنا على شفتي؛ حتى لا أبكي أو يرانـي الآخرون عابسـة، وفي ذلك الوقت كنـت أخفي عنهم المعاملة السـيئة التي يعاملني حمزة بها. فقد كانت عائلتي تعتقد أنني ملكة، وأن حمزة خادمي المطيع.

«علينا الرحيل الآن يا فدوى».

أدرت رأسي بسرعة، وأمسكت نفسي عن البكاء، عندما نهضنا لنغادر.

وعند السـاعة ٥:٠٠ صـباح اليوم المقبل وقفنا خارج منزلنا الجديد، واسـتقللنا سيارة أجـرة من عمّـان إلى محطة الحافلات عند جسـر الملك حسـين، وهو المـكان الوحيد لعبور الحـدود بيـن الأردن والضـفة الغربية. اسـتقللت أنا وحمـزة والأطفال الحافلـة المتجهة إلى الحدود الإسرائيلية، وكان يجب معاينة جوازات سفرنا وتفتيش أمتعتنا، عندما غادرنا الأردن. وعنـد الحدود الإسـرائيلية كان على الجميـع مغادرة الحافلة للقيام بعمليـة تفتيش أخرى، ثم انتزعنا أحذيتنا، ومررنا في جهاز كشف المعادن.

أوقفني حمزة جانبًا مع الأطفال، بينما أرى جوازات سـفرنا لضـابط، وأجاب عن أسـئلة حـول النقـود التي نحملها وبطاقاتنـا الائتمانية، وأين نتجه، وعند من سـنقيم، وكم من الوقت. لكنـه لم يسـتطع أن يخبرهم بأننا ذاهبون لزيارة والديه؛ لأنهما ليسـا مقيمين شـرعيين الآن. فعلى الرغم من أن فلسطين هي بلدهم الأصلي إلا أن والد حمزة رحل إلى كولومبيا عام ١٩٥٩م تقريبًا، آخذًا بنصـيحة صـديق له أخبره بأنه سـيجني ثروة هناك بعمله بائعًا متجولًا. وتبعته أم حمزة بعد سـتة أشهر، وتركت حمزة (الذي كان ابنهما الوحيد في ذلك الوقت) مع جديه. وبعد بضع سنوات ذهب حمزة ليعيش في كولومبيا. وعندما قررت العائلة أن تعود إلى الشرق الأوسط بعد عقدين من الزمن لم يُسمح لهم بدخول فلسطين؛ لأنهم لا يزالون يحملون هوياتهم القديمة التي لم تعد الحكومة الإسرائيلية تعترف بها. لذلك كان على عائلة حمدان أن تنتقل إلى الأردن. والآن يعيش والدا حمزة في فلسطين، ليس بوصفهما مقيمين، بل بصفتهما زائرين مدة طويلة.

ولتجنب لفت الانتباه لهذا الموضـوع الحسـاس أخبر حمزة ضـابط الحدود الإسرائيلي بأننـا ذاهبون لرؤية خالتـه التي كانت تعيش بالقرب من والديه، ثم ذهب الضـابط إلى غرفة حاسوب صغيرة، وتحقق من هوياتنا؛ حتى يتأكد من أننا غير مطلوبين في الأردن. وبعد دقائق عدة عاد، ووضـع أختامًا على أجوزتنا تمنحنا الإذن بالبقاء في فلسـطين مدة تصل إلى شهر.

ثم استقللنا سيارة أجرة من المحطة إلى رام الله، ثم إلى منزل والدي حمزة الذي يبعد ساعتين تقريبًا. وهكذا استغرقت الرحلة ١٢ ساعة لنصل.

قبلت يدي حماتي و(حماي) وأرشدانا للمنزل. كان هذا المنزل الجديد يتكون من طابقين، وكان الطابق الثاني يحتوي على شقة لعائلتنا، لكن لم يكن فيه إلا فرشة على الأرض وثلاجة خالية، لذلك انتهى بنا المطاف بإمضاء النهار في الطابق السفلي. كانت حماتي تحب الكلام، فبمقدورها التحدث ساعتين أو ثلاث دون إبطاء. كان عمر روان سبعة أشهر آنذاك، وكنت لا أزال أرضعها، لكني لم أستطع مغادرة الغرفة؛ حتى لا تعتقد حماتي أني أتصرف بوقاحة؛ لذلك جلست على الفرشة، وأرضعت روان، وغطيتها ببطانية صغيرة، بينما استمرت حماتي في الثرثرة.

دخل حمزة وأبوه الغرفة، وجلسا غافلين عن روان.

طلب مني حمزة، قائلًا: «فدوى، هل تستطيعين إحضار قلامة أظفاري؟».

«نعم، سأحضرها بعد قليل». أجبته، وأنا أربت برفق على ظهر روان.

ضحك (حماي) ضحكة خافتة، وقال: «ها، ها. لو كان لديك زوجتان يا حمزة، فلن تحتاج إلى الانتظار أبدًا، فعندئذ ستكون واحدة منهما على أتم الاستعداد لجلب أي شيء تريده».

ابتسم حمزة، ولم يُجب.

بقيت صامتة أيضًا، لكني ضحكت في داخلي، مَنْ تلك التي ترضى أن تكون زوجة ثانية لحمزة؟ لن تتحمله أي امرأة أخرى طويلًا. نعم، إنه طبيب، لكنه مضجر. فالاستماع إلى حمزة ووالديه يتكلمون يشعرك بالملل القاتل. ولحسن الحظ جاءت خالته وأولاد عمه ليزوروه. وقاموا بدعوتنا جميعًا على العشاء، فقد كان ذلك من عاداتهم، عندما يوجد ضيوف للعائلة في قريتهم، لكن حمزة رفض.

«ليس من الضروري أن تذهب فدوى لتتعشى. الأفضل لها أن تبقى هنا».

أجابته خالته، منزعجة: «ماذا تعني بهذه الإجابة؟ لقد أتينا هنا لندعو أم يوسف (فدوى) على العشاء! كيف لك أن ترفض ذلك؟».

لم يؤثر ذلك في حمزة. فقد كان هو ووالداه معروفين في القرية بطباعهم السيئة، ولم يكونوا محبوبين كثيرًا، ولا حتى من عائلتهم نفسها. أما أنا فقد أحبتني العائلة الممتدة كلها. وشعرت ببعض المواساة، عندما علمت بوجود هذا التوتر في العائلة.

في ٢٨ آب رجعنا إلى الأردن. تناولنا الغداء مع عائلتي، وزرنا أقارب أم حمزة الذين كانوا يعيشون في الأردن. وبعد مدة قصيرة رجعنا إلى السعودية حتى يرجع الأطفال إلى مدارسهم. رجعت الحياة إلى سابق عهدها، وبقيت على هذه الحال أشهرًا عدة.

وفي ١٩ كانون الثاني ١٩٩٩م حلّ عيد الفطر. بقي معنا حمزة في اليوم الأول من العيد، ثم أخبرني بأنه راجع إلى الأردن، ثم إلى فلسطين.

«هل أستطيع أن أرسل معك رسالة وصورة للأطفال؛ لتعطيها لعائلتي، عندما تصل الأردن؟».

«ليس لدي وقت لأراهم. سوف أتجه لفلسطين من الأردن في اليوم نفسه».

كنت أتساءل: لماذا يذهب إلى هناك كثيرًا، لكني ابتسمت، وتمنيت له رحلة آمنة. ثم عاد للمنزل بعد أسبوع، ورجعنا إلى روتيننا المعهود.